خلافة الإنسان في الإسلام والتحولات الحضارية

علي بن العجمي العشي*

تاريخ وصول البحث: 2021/04/08م تاريخ قبول البحث: 2021/08/09م

ملخص

يتناول هذا البحث موضوع خلافة الإنسان والتحولات الحضارية من خلال الحفر في مسار الحضارة التي أنبأتنا بالصورة التي تكفّل فيها الإنسان بتحمّل الأمانة الكبرى، وبمستويات النجاح وحدود الانتكاس، فإلى أي مدى يمكن للإنسان أن يتجاوز صعوبة الواقع الحضاري ويعيد مهمّة الخلافة إلى مسارها الذي يُمكّن الإنسان من تحقيق مراد الخالق من المخلوق؟

ولقد اتبعت في هذا البحث المنهج التاريخي والمنهج الاستقرائي، مع المزاوجة بينهما لرصد التحولات الحضارية في مسيرة الإنسان المستخلف والقيام باستقراء للاستنتاجات المساعدة على تحقيقه.

والبحث أصيل في بابه إذ هو محاولة جادة للإجابة عن سؤال الاستخلاف، والتحولات الحضارية التي تشرح مسار الوظيفة المناطة بعهدة الإنسان والتي تراوحت بين حدوث تشوهات فيها خلال بعض مراحل التاريخ الإنساني، وإعادة إلى المسار الصحيح في مراحل أخرى.

الكلمات المفتاحية: خلافة الإنسان – الإسلام – التحولات الحضارية

Human Succession in Islam and civilization transformations

Abstract

This research deals with the issue of human succession and civilizational transformations by digging in the path of civilization that told us the image in which man is guaranteed to bear the great trust which is being God successor's, the levels of success and the limits of relapse. To what extent can man overcome the difficulty of the civilized reality and draws back the mission of succession to the path that enables man to achieve the Creator's desire from the creature?

The nature of the research necessitated that I follow the historical method and the inductive method, with a combination of them both to monitor the civilizational transformations in the path of human being and to extrapolate the conclusions that help achieve them

I hope that the research will be original in its topic, as it is a serious attempt to answer the question of succession, and the civilizational transformations that explain the course of the function entrusted to man, which ranged from the occurrence of distortions in it during some stages of human history, and returning to the right track in other stages.

Keywords: human succession - Islam - civilizational transformations

* أستاذ مشارك، كلية الشريعة، جامعة قطر – acuchi@qu.edu.jo

مقدمة.

إنّ الإنســـان وُجِدَ على هذه الأرض، وهو يُدرك في ذاته أنّه موجود بإرادة خارجيّة، لكنّ الصـــعوبة الأولى التي تواجهه هي إشكال الغاية من وجوده، وهو السؤال الذي سأله الإنسان لنفسه، وعالجه أهل الفكر على مرّ الأزمان، إنّ الغاية من وجوده تتعلّق بقضـــيّة الخلق عامّة، أي بالضـــرورة التوحيدية، وهي التي يدرك العلماء مدى ارتباطها بمجمل قضـــايا الفكر الإنســـاني المؤسِّـــسة للكون والحياة والإنســـان، من خلال الأبعاد الثلاثة الكبرى، وهي الوجود والمعرفة والأخلاق، وتصـوّراتها الإشكالية الذي لو أمعنا فيها النّظر بالعودة إلى صـريح القرآن الكريم، لوجدنا أنّ معالمها الكبرى تتمثل في خلافة الإنســـان ومقوّمات وجوده الواقعي الذي يبدو منزاحا تاريخيّا مع كلّ الإنجازات التي يقدّمها وهو يبني الحضارات ويشكّل الحركة الثقافية، ويتفاعل إيجابيّا أو سلبيّا مع ذاته ومع الآخر.

كانت خلافة الإنسـان هي المعنى الحاضـر في وجوده على هذه الأرض لكنّ طبيعتها كانت متغيّرة بتطوّر حياة هذا الكائن المُسْتَخْلَفِ، ولئن كانت مهمّة الإنسان هي القيام بهذه الوظيفة على حساب المُسْتَخْلِفِ، فإنّ الوسائل التي من خلالها تشكّل الوحي بمقاصد الوجود لم تكن واحدة؛ إذْ إنّ علاقة الإنسان بربّه كانت محدّداً رئيساً في القيام بوظيفة الاستخلاف، حيث إنّ إيمان آدم ﷺ كان ضروريّا وليس في حاجة إلى برهنة عقلية، ولا إلى إشراق روحيّ، فعمليّة الخلق كانت مباشرة والإيمان تعلّق بالمعاينة، أمّا بنوه وبقدر التباعد عن إيمان الضـرورة فقد تعلّقوا بالواقع وواجهوه بنوع من الخضـوع الاعتقادي الذي أرســـل الله في كلّ مرّة من يُعدّله ويعيد صـــياغته، وكان الأنبياء عليهم الســـلام هم من حملوا لواء هذه المهمّة، أي تصـحيح مسار الاستخلاف وتحمّلوا مع المستضـعفين ضـريبة الخلل الواقعي في تمثّل العلاقة بين الخالق والمخلوق وتأثير الطبيعة على الإنسان، حتى إذا بلغ العقل مرحلة النضـج أرسل الله نبيّه محمّداً صـلى الله عليه بمعجزة القرآن العظيم، وأعاد مســـار الخلافة إلى طبيعتها الأصـــيلة، فتمكّن العقل الذي هو مناط التكليف وعلّة الاســـتخلاف من القيام بدوره في فهم العلاقات المختلفة التي تتمثّل الإنســان والعالَمَ من حوله، وليفتح آفاقا جديدة تمكّن من تنزيل وظيفة الخلافة وتحدّد مقوّماتها من خلال فهم الإنسـان للغاية من خلقه، بشـكر المُنْعِم على الإنسـان بأعظم وظائف الوجود، وجماع ذلك العبادة التي هي وسيلة الإنسان لإعادة بناء علاقة متوازنة مع خالقه، قوامها الاعتراف والشكر مع التسليم بالفارق الكبير بين عظمة النعمة ومحدودية قدرة الإنسان على الإيفاء بحقّها.

المطلب الأول: مفهوم خلافة الإنسان.

أولاً: مفهوم الاستخلاف لغة:

أصـل الجذر (خ ل ف)... واسـتخلف فلانا من فلان: جعله مكانه (...)، والخليفة: الذي يُسـتخلَف ممّن قبله، والجمع خلائف"[1]، وخلافة الإنســـان علّة للوجود، كما نجد في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة: 30]، وبالمعنى اللّغويّ الظاهر لا يصـحّ أن يسـتخلف الله تعالى خليفة يقوم بتدبير الأمور بدلاً عنه، "أمّا المعنى المجازي وهو الذي يتولّى عملا يريده المسـتخلف مثل الوكيل والوصـيّ، أي جاعل في الأرض مدبّراً يعمل ما نريده في الأرض، فهو استعارة أو مجاز مرسل وليس بحقيقة؛ لأنّ الله تعالى لم يكن حالاً في الأرض ولا عاملاً فيها العمل الذي أودعه في الإنسان وهو السّلطة على موجودات الأرض"[2]، وعليه يكون معنى الاستخلاف لغة هو تولّي مهمّة القيام بأمر ما بتكليف من مستخلف سواء ابتداء ونيابة عنه واستكمالاً لما لم يتم استكماله، وفي هذه الحالة يكون الاستخلاف بمعنى تكليف المستخلِف المستخلَفَ بإرادة عمارة الأرض والإصلاح فيها لا بدلا منه.

ثانياً: مفهوم الاستخلاف اصطلاحاً:

يقتصـر بعض النّاس عند الوقوف على مفهوم خلافة الإنســان في الأرض على تدبير شـؤونها وتنظيم الحياة على ظهرها، لكن المفهوم قد يكون أعمق من ذلك بكثير؛ إذ إنّ الخلافة تتّصل بوجود الإنسان على الأرض اتّصـالا مباشراً، مع كل ما يقتضيه هذا الوجود من استمراريّة فعله في الحياة سواء على مستوى النّوع أو على مستوى الفرد، فالاستخلاف يكون بالمعنى الحضـاري العام، أو بمعنى التّكليف الفردي، وعليه نجد أنّ التّكليف هو الذي يقتضـي التّعلّق بالفرد أسـاسـا بمثابة الخاصّ المتضمَّن داخل العامّ وهو الاستخلاف، على خلاف نوع آخر من المخلوقات وهم الجنّ الذين يطالهم التّكليف دون الاستخلاف، وعليه يكون الإنسان من خلال هذه الوظيفة العظمى قد تميّز عن غيره من المخلوقات، وكان الاستخلاف سبباً لوجوده في الأرض واضـطلاعه بهذه المهمّة العظيمة، وهي الأمانة التي أشـفقت منها السـماوات والأرض والجبال وخشـيت حملها، وحملها الإنســان امتثالا لأمر خالقه، وأيضـــا باعتبار أن الفعل في هذه الأرض مع الوعي بوظيفة الاســتخلاف هو العبادة ذاتها التي خُلِق الإنســـان من أجلها؛ إذ إن "الإنســـان خُلق لحكمة إلهية، وأن جماع هذه الحكمة هي العبودية لله عبودية يتأسّـس عليها تفضّـل إلهي بالنعمة"[3] وقد نُقِلت عدّة صـور لهذا المفهوم، متلازمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باعتبار مركزيته في الفكر الإسـلامي، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّـلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[الحج: 41]، وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُـــهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[التوبة: 71]، حيث إن من أهم وظائف الإنسان العاقل هو التوجيه والنصح والتعديل والتصحيح ما أمكن، استجابة لمطلوب تعمير الأرض على أصلح الوجوه وتشييد الحضارة على أكمل مراد المُستخلِف، فيكون الأسـاس هو جلب المعروف وردّ المنكر، "وهذا يعطي مفهوم الإسـلام الأسـاسـي عن الخلافة وهو أن الله ﷻ أناب الجماعة البشـرية في الحكم وقيادة الكون وإعماره اجتماعياً وطبيعياً"[4]، وحين نقول إن أصـل الخلافة هو الفعل في الأرض، وتنفيذ مراد المسـتخلف، فهذا يعني بالضـرورة توجيه جهد الإنسـان إلى الكون وآياته من خلال تكامل قراءة الكتاب المسـطور وهو

القرآن الكريم مع قراءة الكتاب المنظور وهو الكون كما في قوله تعالى: ﴿**وفي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ* وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾[الذريات:20-21]، حيث إن "الإنسان عنصر كوني على مستوى الخلق وعلى مستوى الحركة لممارسة الحياة، فالكون هو منبته وهو مجال حياته"(5)، وعليه أن يكرّس فعله لنفع الناس وتطوير المجتمع وحسن التصرف في الموجودات المُسخّرة له من أجل الاستعانة بها على أداء وظيفته، فإذا تحقّق هذا كله يكون الإنسان قد أثبت أنّ اعترافه بوجود خالقه يستوجب الشكر على نعمه الظّاهرة والباطنة، ابتداء بنعمة الإيجاد، وشمولاً بنعمة التّوحيد، وختاماً بالمصير الآمن إلى المهد الأوّل إذا وفّى الإنسان بشرط خلافته.

وقد أخطأ كثيرون لمّا قدّروا أن أمانة الاستخلاف هي توطيد العلاقة بين الإنسان وخالقه، حتّى وإن اقتضى ذلك طلب رضا الخالق من خلال التّوجّه إليه نظريّاً وعمليّاً على حساب حاجات المخلوق واستحقاقاته على الأرض، وهو الخلل الذي أوغل فيه الفكر الدّينيّ على امتداد قرون طويلة خاصّة في العصر الوسيط، رغم أن الخلافة بثوابتها المرجعيّة وبانشغالها الواقعيّ كان حضورها واضحاً مع بعثة النّبيّ ﷺ، وفترة من تاريخ الخلافة الرّاشدة بعد مرحلة النّبوّة التي مثّلت أنموذجاً ناصعاً تشكّل فيه مفهوم الاستخلاف واقعيّا قبل أن ينكسر في فترة لاحقة مع التّحريف السّياسيّ لهذا المفهوم الذي أثّر تأثيراً قويّاً في توجيهه إلى غير الوجهة التي مثّلت مراد الله من الاستخلاف، رغم أنّ هذا التّوجيه كان اجتهاداً أخلص أصحابه من خلال محاولة استثمار التّجربة النّبويّة والتّجربة الرّاشدة لتحقيق خلاص الإنسان الذي وقعت مصادرة مفاهيمه العقديّة لصالح الطبقيّة سواء القبَليّة أو السّياسيّة، وعليه وقع اختزال مفهوم الخلافة في تحقيق التّوحيد النّظريّ عموديّاً مع العجز عن تنزيله أفقيّاً في مستواه الأفقيّ.

المطلب الثاني: المسار الحضاري لخلافة الإنسان.

حين نتحدّث عن خلافة الإنسان فنحن بين أمرين، أوّلهما هو الإنسان ذاته؛ لأنّ طبيعة وجوده متعلّقة بالغاية ذاتها التي كانت علّة وجوده، وثانيهما هو المنجز الحضاري الذي كان حصيلة تجربة الإنسان في هذه الحياة، ومن خلال التأمل فيهما نرى أنّنا لا نقدر أن ننفصل عن الإنسان لحظة تقصّي مسار الاستخلاف؛ إذ إنّ الخلافة ذاتها تقتضي حركة الإنسان وفعله فيما يحيط به من هذا العالم بكلّ ما فيه من أشياء، وما يقع فيه من أحداث، فنحن نرصُد حركة الاستخلاف في تعلّقها بتجربة تاريخيّة شاقّة، قد ننتوه ونحن نتأمّل الماضي وما فيه من حُفر ونتوءات وزوايا لا نعثر لها على شاهد يسجّل حضورها في لحظة ما من الزّمن، لكننا لن نفقد المعيار إن بحثنا في آثار الإنسان الماثلة أمامنا وما خلّفه الأسلاف من إنجازات تستحضر أجزاء التاريخ وتقرّبنا مِن أنفاس مَن سبقونا الذين واجهوا واقعهم رغم حدّة الصرّاع مع الطبيعة، وحقّقوا من الإضافات ما يُمكن رصده ومحاولة قياس ملامحه القِيَمِية من خلال ما يخبرنا به استقراء أحداث التاريخ من لحظات السعادة أو الألم التي مرّ بها الإنسان وهو يسطّر حفريّات وجوده لتكون لنا نحن ومن سيأتي بعدنا محراراً أنتروبولوجيا نفهم

به طبيعة الفرد وصورة المجتمع وقدرة الإنسان عموما على تجاوز العوائق المختلفة وهو يؤسّس مسار الاستخلاف، تدفعه المقاومة المستمرّة من أجل تحقيق غرضه من هذا الوجود.

إنّ الأخبار الدينية والأبحاث الأنتروبولوجية سواء كانت موضوعية أم محمولة بالذاتية، كلّها تكشف عمق التحوّلات التي طرأت على واقع الإنسان طيلة مساره الاستخلافي، والمُلاحَظُ في هذا التغيّر المستمر هو التلازم المطّرد بين ثنائية –الحضاري/ الثقافي–، فالحضارة بما تمثّله من منجز تراكمي وفعل ماديّ متطوّر هي تعبير عن صورة ثقافيّة شكّلت طبيعة المجتمعات وقدرتها على استخلاص تصوّرات موحّدة جمعت بين المعرفي والروحي ممتزجا بالمخلّفات الوجدانيّة لمختلف تجارب الإنسان في الحياة، والتي تراوحت بين الاستجابة والرفض في مواجهة السيرورة الواقعية لحركة الحضارة التي تداخل فيها الأنا والآخر، وهي ذات الأبعاد التي انتبه إليها أحد الباحثين في مقرّر الثقافة الإسلاميّة بجامعة قطر، حيث رأى أنّ من أهم العوامل المحرّكة لهذا المقرّر هو فهم السياق التاريخي المحدّد لأهم النقاط المتعلّقة به فيقول:

- **"نشأت (الثقافة الإسلاميّة) أوّل ما نشأت استجابة للوحي، فرغم أنّ الثقافة الإسلامية كمصطلح يعدّ حديثا إلاّ أنّه كحقيقة واقعية نشأ استجابة للوحي في عصر التنزيل.**
- **تراوحت (حركة الثقافة الإسلاميّة) في قرون مديدة بين الصدارة أو الغلبة والصمود أمام أيّ (غزو فكريّ أجنبي).**
- **خلال هذا التاريخ الطويل، كان هناك تلازم بين الحالة الثقافة والتقدّم الحضاري للأمّة ..."**[(6)]، وإذا شهدنا على تلازميّة الحركة الحضاريّة للأمّة الإسلامية مع المتغيّرات الثقافية، فإنّ الموضوعيّة، وكذلك الدراسات العلميّة كلّها تدل على هذه الحقيقة مع من سبق من الأمم، فّإننا وإن كنّا نتصوّر بساطة المنجز الحضاري للإنسان الأوّل، وتواضعه لدى الفترة الممتدة خلال مرحلة الاعتقاد المغلق، إلاّ أن هذا الفعل الواقعي هو حصيلة حيّة للاستخلاف وصورة كاملة لقدرة الإنسان على تحقيق هذه الوظيفة المنوطة بعهدته، رغم أنّ الإنسان لم ينجح بكلّ ثنايا التاريخ من التمكين للعهد الذي قطعه لمّا تولى الأمانة حيث قال تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾**[الأعراف: 172].

وإذا اعتبرنا أنّ الخلافة لا تنفصل عن الإنسان في حركته الواقعيّة ومنجزاته الحضارية وتشكّلاته الثقافية المتغيّرة، فيمكننا القول إنّ هذه القضية من خلال ارتباطها بالتوحيد اعتبارا لاختيار الله ﷻ للإنسان ليكون خليفة في الأرض، تتمثّل أساساً في حركة الرسالات السماوية وتنزّلها على الأنبياء والرسل، فيرتبط مسار الاستخلاف إذن بإرادة الله ﷻ بأن يهبط آدم عليه السلام وزوجه إلى الأرض، وإعلامه بالمهمّة التي عليهما القيام بها كما في قوله ﷻ: **﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾**[طه: 123]، وقد مرّ الإنسان من مرحلة التعرف على طبيعة الحياة الجديدة بين مجاهل الطبيعة وأسرارها بعد أن تحمّل عبء الخطيئة الأولى ولامست قدماه الأرض غريبا معزّزاً بميثاق الخلافة، لكن يترصّده العدوّ الأوّل الذي يزجّ به في دائرة الاختبار الشاق والمستمرّ في هذه الحياة، حيث قال تعالى مبيّنا مشقة الطريق: **﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ**

﴿أَجْمَعِينَ﴾[ص:82-85]، وعليه لم تتمكّن البشريّة من المحافظة على الحركة الصحيحة الضابطة لوظيفة الاستخلاف، فشهدت عديد الانحرافات وظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وغاب العقل لفترات طويلة، وصاحب الوحي الشريف حركة الحضارة والثقافة التي لم تكن دائماً منسجمة مع مقتضيات التوحيد ومطلوب الخلافة، حتى تمكّن العقل من تحقيق قدر من النضج وأصبح قادراً على استيعاب طبيعة الرسالة الجديدة، رسالة الإسلام التي تمثل آخر حلقات التأسيس لوظيفة استخلاف الإنسان، جامعة بين الوعي بوجوده، وتحرير إمكاناته المعرفية، وبناء قيمته الأخلاقية، وهو ما يمكن رصده عبر عدة مراحل.

المطلب الثالث: الاستخلاف بين الظهور الأول والظهور الأخير.

أولاً: بداية الاستخلاف (الإيمان البسيط).

كانت بداية الاستخلاف في صورتها الأوليّة بسيطة برغم ما أحاط بها من إشكال يتراوح بين الخبر الصحيح والتأويل؛ إذ إنّ تصريح الله للملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة: 30]، بمعنى: **"أنّي جاعل في الأرض خليفة منّي يخلفني في الحكم بين خلقي، وإنّ ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه"**(7)، وآدم عليه السلام قد عاين الملأ الأعلى وما فيه من الغيب غير المكشوف لبنيه؛ حيث إنّ إيمانه هو ضرورة لا تقتضي الاجتهاد، والإشكال في استخلافه هو سؤال الملائكة حول طبيعة هذا الاستخلاف المؤرّق لمستقبل الإنسان، إذ كيف عرفت الملائكة أنّ هذا المخلوق القادم سيُفسد في الأرض ويسفك الدّماء؟، وتقدير ذلك إمّا أن يكون بمعاينة أو إخبار، حيث إنّ بعض الروايات تقول بخلق الجنّ قبل الإنسان وسفكهم للدّماء(8)، وإمّا بتأويل؛ حيث إنّ التصريح بالاستخلاف فيه دلالة على الحكم في الاختلاف، فيكون الملائكة قد **"فهموا من الخليفة أنّه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم"**(9)، وإذا صحّ هذا التأويل وليس بمستغرب؛ إذ كانت كلّ الروايات لا تستند إلى علم صحيح، فإنّ مسألة التّكليف هي أولى شروط الخلافة، ومتعلّقها المعرفة، **"وذلك أنّ الله خلق الإنسان لا يعلم شيئا، ثمّ علّمه وبَصَّرهُ، وهداه طرق مصلحته في الحياة الدنيا"**(10)، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[البقرة: 31]، فمقتضى إيمان الضرورة كان نتيجة المعاينة المباشرة، أمّا مقتضى الاستخلاف فكان أوّل اختبار للعقل في تجليّاته الفطريّة الصافيّة، حيث أفصح آدم عليه السلام عن أداة التكليف الرئيسة، وتحققت الملائكة من حكمة الله بعد استفهامهم عن طبيعة المخلوق الجديد، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا...﴾[البقرة: 33-34].

هذه هي البداية البسيطة لخلافة آدم، لكنّها مع ذلك تحمل في طياتها حِمْلَ الأمانة الثقيل، فالله الذي خلق هذا الكائن الصغير في حجمه، سخّر له ما في هذا الكون العظيم، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾[الجاثية: 13]، وهو ما يتطلّب ملاءمة الاعتراف بالفضل لجليل النعم الممنوحة، وهنا تبدو صعوبة الخلافة رغم ما في

ظاهر ابتدائها من بساطة التكليف، وفي هذا السياق يقول صاحب (التحرير والتنوير): "**المذكور من تسخير البحر وتسخير ما في السماوات والأرض دلائل على تفرّد الله بالإلهيّة، فهي وإن كانت مناً يحقّ أن يشكرها الناس، فإنّها أيضا دلائل إذا تفكّر فيها المُنْعَمُ عليهم اهتدوا بها**"[11]، وعليه نجد أنّ ثاني شروط الخلافة بعد العلم، هو ضرورة الاعتراف بقيمة هذا التمييز للإنسان من بين الخلق وتكليفه بالأمانة التي وَجِلت منها أعظم المخلوقات كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ**﴾[الأحزاب: 72]، وهكذا فإنّ الاعتراف بهذه النعم، والتفكر في أسبابها وطرائق تفاعل الإنسان معها، ثمّ تمثُّل مقاصدها، كلّ ذلك يدعو إلى التساؤل عن طبيعة شكر المُنْعِم؛ إذ إنّ الإنسان بمفرده وأمام عظمة النّعم وعجزه عن إحصائها، غير قادر على تقدير القيمة الحقيقية لها، وعليه كان توجيه الله ﷻ إلى كيفية تمثّل هذا الاعتراف من خلال العبادة، وقد قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ...**﴾[البقرة:21-22]؛ وذلك أنّ العبادة هي أهمّ أصول هذا الاستخلاف، والمقصد الذي أفرده الله ﷻ بخصوصه ليدلّ به على العامّ لـمـّا قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[الذاريات: 56]، "**وعليه فكلما حقّق الإنسان مقصد العبادة ومقتضياتها كلّما تقرّب إلى خالقه، وكلّما ارتقى في معارج الكمال، وبتحقيق مقصد العبادة يتحرّر الإنسان من كلّ عبوديّة لغير خالقه**"[12]، وقد خاض آدم وذريته مرحلة الاستخلاف الأولى بإيمان الضرورة، ومقتضى هذه المرحلة هو اعتراف المستخلَف بفضل المستخلِف عليه، وقد علم ما يجب علمه وتحمل عبء الأمانة متمثِّلا ذلك بمطلوب التقرّب للخالق، حيث نجحت بعض ذريّة آدم في هذا الاختبار وفشل آخرون كما تخبرنا الكتب ذات الأصل الإلهي.

ولا تقدّم لنا الدراسات الأركيولوجية صورة واضحة عن الإنسان الأوّل وكيفية تعاطيه مع الحياة، بل لا تؤكّد البدايات الحقيقية لهذا الوجود لصعوبة تحديد التغيرات الجيولوجية وغياب الآثار التي تدلّ عليه، ناهيك عن تسجيل فعل حضاري يمكّن من تأصيل الاستخلاف إذ كان هدف هذا الاستخلاف هو البناء والتعمير، حتى أن بعض من يؤمنون بالنظريات التطورية لا يستسيغون نعت الإنسان الأول بالكمال الإنساني، فعندهم نجد "الإنسان الأول في مثل هذه الحِقب المتهالكة في القدم هو الإنسان الحيوان، أو الإنسان الشبيه بالبشر، أما الإنسان المُنتصِب القوام، ولا سيما الإنسان العاقل المدرِك، فلم يظهر إلا بعد ذلك بوقت طويل"[13]، وقد نعتبر أن الإنسان في الحِقب الأولى لم يمتلك القدرة العقلية الكافية التي تُمكنه من ترك بصمته الحضارية، وحتى لو اعتبرنا أن الهمجية قد سادت تلك الفترة المبكرة من حياة الإنسان مع سرعة انحرافه عن التوحيد البسيط ودخوله في مواجهة غير متكافئة مع الطبيعة وسطوتها، إلا أن هذا الإنسان لا بُدّ أن يكون قد ساهم بشكل ولو بسيط في وضع اللبنات الأولى لكيفية التعامل مع الطبيعة، ولا بدّ أيضا أنه نقل خبراته البسيطة إلى من بعده حتى ولو كان ارتباطه بالوجود وعلاقته بالاستخلاف علاقة ضرورة لا أكثر؛ إذ إن "الهمجيّ هو أيضا متمدّن بمعنى عام من معاني المدنية؛ لأنه يُعنى بنقل تراث القبيلة إلى أبنائه، وما تراث القبيلة إلا مجموعة الأنظمة والعادات الاقتصادية والسياسية والعقلية والخلقية التي

هذّبتها أثناء جهادها في سبيل الاحتفاظ بحياتها على هذه الأرض والاستمتاع بتلك الحياة"[14]. تلك إذن المرحلة الأولى من تاريخ الاستخلاف التي لا نكاد نملك عنها إلاّ بعض ما نقلته الكتب المرجعية للأديان والنصوص التأسيسية لها، أو بعض الآثار من الهياكل العظمية الباهتة التي لا تُقدّم تصوراً يُمكّننا من بناء صورة قريبة لطبيعة الحياة التي لا نتصوّرها في ذلك الوقت غير صراع في العراء مع مكونات الطبيعة وأهمها الصيد والاحتماء داخل المغارات والكهوف.

ثانياً: استبعاد العقل والاستخلاف المشوّه.

إنّ المرحلة اللاحقة لفترة تشكّل استخلاف الضرورة، هي نوع من الهيمنة القويّة للاعتقاد المُغيّب لكلّ نوع من البرهنة العقليّة، فالإنسان بعد مرحلة طفولة الوجود وتنائيه عن لحظة النبوّة الأولى وبعد اللقاء الأوّل مع الطبيعة انفصل تدريجيّا عن التوجيه الإلهي المباشر، ﴿**قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾[الأعراف: 24]، ليجد نفسه وجهاً لوجه مع الواقع المُلغِز بكلّ أسراره المخيفة، وأحداثه التي لا تتناهى وهي تصادم الإنسان بالأمراض والموت والشقاء فيقاوم من أجل توفير مقوّمات الحياة، وأصبحت غايته الأهم توفير الأمن والاستقرار؛ إذ مهادنة الطبيعة هي إحدى أولوياته ولو بالاستكانة إلى ما تفرضه عليه من قداسة القوّة، رجاء توطينها لتهبه من خيرها وتمنع عنه شرّها، والإنسان مع ذلك ورغم شبه غياب للعقلانية، إلاّ أنّه بدأ في تشكيل ملامح الحضارة، "**وأوّل صورة تبدّت فيها الثقافة هي الزراعة، إذ الإنسان لا يجد لتمدّنه فراغاً ومبرّراً إلاّ إذا استقرّ في مكان يفلح تربته (...) ويستأنس الكلب والحمار**"[15]، وهو الطّلعُ المثمر للخلافة كما أقرّه العقد الإلهي ﴿**هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾[هود: 61].

وطبيعي أن تمرّ مرحلة بناء الحضارة الإنسانية بتحوّلات كبيرة في بنية المجتمعات ووسائل الحياة، وكذلك في كيفية التفاعل بين الإنسان والطبيعة، وهي ذاتها التغيّرات التي ستحدّد طبيعة علاقة الإنسان بربّه وتضعه في اختبار مع عهد الاستخلاف، وبرغم كثرة الزوايا المعتِمة في تلك المساحات المترامية من التاريخ، إلا أنها من أهم المراحل التي سجلت حضور الأنبياء والرّسل حاملين رسالة التوحيد ومعدّلين مسار الخلافة الإنسانية، قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا**﴾[النساء: 163]، ولم تكن لتتشكّل ملامح حضارة من الحضارات إلا ولهؤلاء المصطفين الدور الأبرز حتى لو خالف ادّعاء البعض هذا الرّأي، فنحن نلاحظ حتى في الحضارات التي قامت على العلمانية ترفع دائما راية الدّين في مواجهة الحضارات الأخرى مثل ثنائية (الإسلام/ المسيحية) أو ثنائية (السامية/ غير السامية)، وهذه المرجعية الدينية المُلزِمة أزالت الادّعاء بأنّ الحضارة سليلة عرق معيّن كما أراد البعض تقرير هذا الوهم حيث قالوا: **ولهذا أخذ يتبدّى لنا أنّ هناك حضارة موحّدة أخذت بالتكوّن، مستوحاة على الأخص من الغرب في مدلوله الأوسع**"[16]، والحقيقة أنّ نشاط الاستخلاف كان مشتركاً إنسانياً، نجح فيه البعض، وانتكس فيه آخرون، وآثار ذلك باقية وشاهدة على حركة الخلافة ولكل منها نصيب لنقف اليوم على تخوم الماضي "**أمام حضارات متعدّدة لا حضارة واحدة وحيدة ليس بينها ما يدّعي الرئاسة**

المحتومة، فهذا أمر مسلّم به اليوم بين علماء الأجناس البشرية والمؤرخين والعلماء"[17]، ولعله ليس من مؤشر إيجابي أوضح من الفعل الإيجابي للوحي الذي حافظ على أصول العقد الأوّل للخلافة، إذ ما فتئ يذكّر الإنسان بتحمّله للأمانة الكبرى التي أشفقت منها أعظم الكائنات.

وقد شهدت المرحلة الثانية من الاستخلاف حضور العدد الأكبر من الأنبياء والمرسلين، حيث دشّن سيدنا آدم وزوجه المرحلة الأولى، أي مرحلة الضرورة بحكم المعاينة الحسّية لعالم الغيب، إلا أن المرحلة التالية كانت طويلة زمنياً، كما شهدت ذلك السجال الحادّ بين تشبّث الإنسان بالحياة من جهة، ومن جهة أخرى صدامه العنيف مع الطبيعة، وهو ما حاد به عن العقلانية، فأصبح الاعتقاد المطلق بديلا عن تذهّن العلاقة مع الواقع، وقد مثّلت الأسطورة والدّين أهم عاملين لتأسيس تصوّر نسقي لطبيعة العالم بمستووين رئيسيين، مستوى المقدّس المتعالي الضامن للوجود، ومستوى الواقع بما فيه الإنسان المنفعل في دائرة السلبية التي عجزت عن تجاوز عجزها والتعبير عن احتجاجها المكبوت، هذا الاحتجاج الذي أصبح نوعاً من الاستسلام الذي يظهر من خلال تشكّل طبيعة المجتمع من مستويين أيضا، مستوى أوّل يضمّ طبقة الحكم وحلفاؤها من الطبقة الناطقة باسم المقدّس، ومستوى ثان تؤسّسه طائفة المستضعفين على اختلاف أوصافهم، وهو المشهد الذي لم تخلخله إلا بعثة خاتم الرّسل ﷺ بما كشفه من خلل كبير في بنية العلاقة الاجتماعية وأعلن الحرب عليها دون هوادة، قال تعالى: **﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾**[النساء: 75].

ولم تكن البشرية قبل الإسلام قادرة على مقاومة سلطة الاعتقاد الذي كانت توجّهه مصالح القوى النافذة، فالعقيدة كانت تُفرض على الناس فرضاً، فلم يبق مبرّر حقيقي لبقاء البشر على الأرض إلا لهيمنة القوي على الضعيف، أو لحصاد الضعفاء أمنية مضمّخة بالدموع من أجل الخلاص في عالم الغيب، ولم يسلم الأنبياء الذين جاؤوا لتعديل مسار الخلافة ومعالجة العقيدة وبعض قضايا الواقع من تنكيل الطغاة، قال تعالى: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ...﴾**[آل عمران: 112]، فلم يقدر العقل على التفاعل الإيجابي مع النشاط اليومي للمجتمع، ليتحرّك البناء الحضاري يشحذه الخيال، ويصنع معه نوعاً من الاعتقاد الصّارم بوصفه خلاصة تفاعل الأسطورة مع الحواس، فخضعت رسالة الاستخلاف إلى نوع من الابتزاز المغلّف بالتقديس باسم الدين، وقد كان من أهمّ ضحاياه الأنبياء عليهم السلام، حيث قُتِل منهم بين القرن السابع والثامن قبل الميلاد عدد كبير منهم أسماء مشهورة مثل (أشعياء بن أموص) و(أرمياء) عليهما السلام غيرهما، حيث رفضت أقوامهم ما جاؤوا به من التوبيخ والنصح[18].

إنّ الإقرار بأن الأنبياء عليهم السلام كانوا ضحيّة الدفاع عن قضايا اجتماعية ومحاربة الفساد مثل الشذوذ والتطفيف في الميزان وغير ذلك من مظاهر الانحراف الخطير عن القيم الأخلاقية، هو ذاته إقرار بأن خلافة الإنسان كانت تنشغل أساساً بالمشكلات الواقعيّة للناس، لكن إنسان تلك المرحلة وقع الزّج به في معادلة توظيف المقدّس للسلطة، وتدمير كيان

الخلافة في انتظار انبثاق ممكن للعقل وسط هذا الصراع غير المتكافئ بين الإنسان الخليفة ومن يصادرون سلطة الغيب المشوّه.

ثالثاً: ظهور الإسلام وتعديل مسار خلافة الإنسان.

إنّ الله ﷻ تولّى رعاية الإنسان على الأرض، فوفّر له كلّ سُبُل الحياة، وتدرّج به في سلّم المعرفة بما زوّده من ملكات لم يحصّلها كائن غيره، وفي ذات الوقت مكّنه من تطوير معارفه بتفتيق العقل على غياهب الطبيعة؛ إذ كانت الغلبة في المراحل الأولى للحسّ والخيال تقديراً لضيق التجربة العقليّة أمام اتساع العالم وصعوبة فرز كلّ عناصره وتحديد العلاقات العلمية بينها، فلمّا تهيّأ العقل لتكون له الهيمنة على الحواس والخيال، وبات الاعتقاد خاضعا لبرهنته، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[البقرة: 111]، وفي لحظة حرجة من تاريخ الإنسانيّة بلغت فيها المجتمعات درجة من التنظيم في كثير من المستويات كما بدت الصورة مع الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية، إلاّ أنّ الظلم كان معيار العلاقة بين القوّة والاستضعاف، فأصبح لزاماً مع هذا الإرهاص بحضور العقل الحاكم أن تقع الموازنة الأخلاقية والعقائدية والعقلية في حياة الإنسان الجديد، وفي ظلّ هذه المتغيّرات كان ميلاد الرسالة الجديدة، تطهيراً للإنسان بعد تلك العصور الطويلة من الضياع في متاهات الحضارة المنحرفة، لتكون العبادة خياراً ذاتياً وتزكيةً للروح بمحض تمثّلات العقل لوظيفته الاستخلافية، "**وعليه فإنّ تزكية النفس ليست إلاّ الشرط الأساس لتحمّل الإنسان أمانة الاستخلاف بحق، وبما أنّ مقصد العبادة هو التزكية (...)، فإنّ تحقيق مقصد العبادة يعدّ شرطاً لتحقيق مقصد الخلافة**"[19].

وعمل النبي ﷺ على إعادة تأهيل العقل الإنساني لقبوله عقائدياً بالتوحيد المطلق، معلناً عن ذلك في الكتاب المرجعي الأول وهو القرآن الكريم، في نصوص كثيرة منها قوله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾[1-4: الإخلاص]؛ لأن الانحراف المبكر عن عقيدة الفطرة كان أحد أهمّ أسبابه عدم القدرة على تجريد التوحيد والإصرار على تصوّره مادياً كما قال تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا**﴾[الفرقان:21]، إذ العجز عن تذهّن العلاقات المادّية والاستدلال بها على وجود الخالق أحدث إرباكاً في العقل الذي كبّله الظلم وهوى النفس وحيث زُجّ بالإرادة الإنسانية تحت سلطة الاستغلال والقمع، وهو ما قسّم الناس إلى طبقتين، إحداهما تمثل الطغيان والشرّ، والأخرى مكسورة الجناح لا قدرة لها على الحفر في جدار سميك من الظلم والضلال ممّا منع عنها فعل الإرادة، وقطع عنها فسحة الاستدلال على حقائق الأشياء؛ إذ بعض التّرف ضرورة للتفكير في بناء الحضارة، وهكذا واجهت عقيدة الإسلام الجديدة كل هذا الزّخم من الانحرافات، وحققت نقلة نوعية في استفزاز العقل في اتجاه مفتوح لتعقل الأشياء، قال تعالى: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ**﴾[الطور: 35-36]، حيث دفع العقل إلى التجريد من خلال الموجود، وهو ما أكسبه القدرة على الخروج من التفكير المادي المحض، إلى مرحلة تأسيسية تمكن من تفعيل العقل الإنساني خارج مجال الهوى والقيود الطبيعية، فسألهُم "أَوُجِدوا من

غير موجد، أم هم أوجدوا أنفسهم، أي لا هذا ولا هذا بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكوراً، ... أهُمْ خلقوا السماوات والأرض؟ وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له"[20].

وعادت وظيفة الاستخلاف على عهد الإسلام تقدّم المثال الذي يؤسّس المرجع العقائدي والفكري للإنسانية، وتمّ البناء محكماً عقيدةً وتشريعاً، وتأهل العقل للاجتهاد وقد نزل القرآن على العقل ابتداء، فكانت أول كلمة تقبلها العقل من القرآن كلمة ﴿اقْرَأْ﴾[21]، وهكذا تحقّقت نبوءات الأنبياء بميلاد عهد جديد ينتصر فيه الخير على الشرّ، ويتمكن فيه الإنسان من استعادة خلافته التي سلبتها القوى الشريرة، ويكون النبي محمد ﷺ هو (ابن الإنسان) الذي بشّرت به الكتب القديمة أو ما بقي فيها من آثار الأنبياء، وذلك موجود في (الرؤى اليهودية) "التي تنبأت بابن الإنسان الذي لن يكون مسالماً ولا عاجزاً عن إيجاد مكان يضع عليه رأسه، ويستحيل أن يقبض عليه الأعداء أو أن يُسلّم لأيديهم، وتنبأت بابن الإنسان القوي المظفر الذي يتغلب على قوى الشر"[22].

ويستكمل النبي محمد ﷺ رسالته، ويعلن ذلك ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾[المائدة: 3] وتنخرط أمته في نشر رسالة التوحيد، ويتدفق الإيمان إلى القلوب الظامئة، حتى إذا استقرت الظروف الأمنية والاقتصادية للأمة الناشئة، بدأ يتنازعها الترف المادّي والتطلّع العقلي، وبدأ صفاء الإيمان ينحسر لصالح البناء الحضاري الذي يتوزع بين المدنية الواقعية والعقل المراوح بين حضوره الواقعي ومرجعيته التوحيدية، وبدأ مفهوم خلافة الإنسان مُختزَلا بين أمّة تحمّلت مسؤولية الرّسالة بصريح القرآن ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...**﴾[آل عمران: 110]، وتأويلات تسقط في التبعية المصلحية، حيث إن "الأمة هي المستخلفة في التصور الإسلامي، وهي المخاطبة بأحكام الشرع، والمعنية بصيانة العقيدة، ومهمتها تلك أصيلة"[23]، لكن طرأت عليها استحقاقات أخرى، منها الموضوعي ومنها الذاتي، وما بين الضرورة والاجتهاد الذي يؤوَّل في كثير من الأحيان إلى الضرورة تحت قوّة الظروف وأهمها سلطة الحكم، جرت المساهمة بفاعلية في عرقلة وظيفة الاستخلاف على الوجه الرّسالي المُراد للمُستخلِف، وهكذا تكون المرحلة الثالثة والتي تبدو مرحلة فارقة تؤذن بصراعات مفتوحة ومستمرّة.

وهذه المرحلة هي الختامية؛ لأن محور الاستخلاف هو العقل، والعقل قد بلغ مرحلة من التطوّر أصبح معها ينازع حقّ ملكية الوجود، وهو ما سيؤدّي برأيي إلى صراع شديد الحدّة بين العقل الخليفة والعقل النقيض قد يذهب بكثير من منجزات الإنسان، أو يتدخل الإله لتعديل سنن الوجود... وهذا المسار على طريق الاستخلاف هو الذي يجعلنا نثير السؤال من جديد، هل أنّ الفعل الحضاري ممكن؟، وهل أن تمثّلات الوحي التي جدّدت الحضارة مع النبي ﷺ مازالت تُغذّي وجداناً توّاقاً وعقلاً يتحفّز للنهوض؟

وحسب الجابري، فإن "السؤال الذي يطرح نفسه علينا الآن، بصدد التجربة الثقافية العربية الإسلامية، سؤال مضاعف يتجه بأصابع الاتهام إلى 'العلم العربي'. فمن جهة تطرح علينا التجربة الفلسفية اليونانية السؤال التالي: لماذا لم تتمكن الفلسفة في التجربة الثقافية العربية من الصمود والانتشار وتعميم العقلانية، هل يرجع ذلك إلى غياب 'العنصر

المحرك' للتقدم الفلسـفي: العلم؟ ومن جهة أخرى تطرح علينا النهضـة الأوروبية الحديثة هذا السـؤال: لماذا لم تسـتطع النهضـة العربية في 'القرون الوسـطى' أن تشـق طريقها نحو التقدم المطرد كما فعلت النهضـة الأوروبية، هل يرجع ذلك إلى غياب 'العنصر المحرك' للتقدم العلمي: التجربة؟"[24].

والجابري يحاول الإجابة عن السـؤال من خلال ما أبداه فيسـتوجيير، إذ يقول: "إن فيسـتوجيير يرى أن العامل الذي قام بالدور الحاسـم في تفكك العقلانية اليونانية وانحلالها يجب أن يبحث عنه، أولاً وقبل كل شـيء، داخل هذه العقلانية نفسـها... إن إعراض العقل اليوناني عن التجربة واحتقاره للمعرفة الحسـية جعل من الحتم أن ينتهي به الأمر، عندما يكتمل البناء النظري الذي عمل على تشييده، كما حدث مع أرسطو، إلى هدم ما بنَى وتقويض ما شيَّد"[25].

والحقيقة أن هذا التحليل لا يصـمد أمام الحقائق التاريخية الثابتة فهذا الربط الذي قام به الجابري –نقلا عن فيسـتوجيير– بين ما اعتُبر سبباً في انهيار ما شيدته الحضارة اليونانية، والأسباب الكامنة وراء عدم صمود الحضارة الإسلامية، وهو في ظنّه ترك المنهج التجريبي، قول متهافت لا ركن وثيق يسـنده، إذ الحقائق تؤكد خلاف ذلك، فقد مضـى المنهج التجريبي والمنهج العقلي في تاريخ الثقافة والحضـارة الإسـلامية كفرسـي رهان لا يكاد ينفصـل أحدهما عن الآخر، فالثقافة الإسـلامية ثقافة بيانية برهانية تجريبية، والذي يطالع ما أنجز في مراحل كثيرة من تاريخ الحضـارة الإسـلامية وما أسـهمته في الحضـارة الإنسـانية في مجال الطب مثلاً لا يمكن أن تسـتوعبها صـفحات هذا البحث ولكن يكفي الإشـارة إلى بعضـها، فمن ذلك: (اكتشاف ابن النفيس للدورة الدموية الصغرى، واكتشاف ابن زهر للطفيلية المسببة لمرض الجرب، ونجاح الرازي في التفرقة بين مرض الحصـبة والجدري، وإرسـاء ابن سـينا لعلم الطفيليات، وابتكار الحقن الجراحية على يد الزهراوي، كما يعود له الفضل في اختراع منظار المهبل، وتقديم وصف دقيق لوظائف المعدة من قِبل ابن أبي الأشعث ...)[26].

وفي الفلك وهندسة المدن والمساحة "يحسن أن يُذكر أن أبا الحسن المرَّاكشي (ت 660هـ/ 1262م)، قد عيَّن –كما يذكر غوسـتاف لوبون– بضـبطٍ لم يسـبِقْه إليه أحدٌ، العَرضَ والطولَ لإحدى وأربعين مدينة إفريقية، واقعة بين مرَّاكش والقاهرة؛ أي: ما مسافته 900 فرسخ، وأنه قيَّد مشاهداتِه في كتاب بعنوان: "جامع المبادئ والغايات في علم الميقات "يتضمَّن – فيما يتضمن كذلك – معارفَ ثمينة لآلات الرَّصد العربية"[27].

ولو قمنا بتطواف على إسـهامات المسـلمين في شـتى أنواع العلوم للمسـنا بعمق حضـور التجربة والمنهج التجريبي في جليل اكتشافاتهم ودقيق اختراعاتهم.

إن طبيعة العقل السـؤال، لذلك نجد أنه أكثر الملكات المعرفية مشـاغبة للنفس، ولعل أشـد الأسـباب جاذبية هو تمكينه للإنسـان من الوعي بالذات، وكم من فترة قصُـرت أو طالت نجد فيها الوعي في حالة غفلة أو سبات، وكم من محاولات بُذلت لتذويب شـخصـية الإنسـان فردا أو جماعة لصـالح استحقاقات الآخر، لكن العقل كما يفتر عن النشـاط لفترة، فقد يُصـاب أيضـا بنزوة اسـتفاقة يراجع فيها الخلل ويعيد الأمور إلى نصـابها، فهو ميزان الحق الذي يُفهم به شـرع الله وتتصـلح به حياة البشر، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾[الرحمن: 7]، وعليه كان شأن الحضـارة التداول بين الأمم، وإن كان الوعي

بها من خلال المنتَج الثقافي المتنقل بين الشعوب ميراثاً مشتركاً، إلا أن الخصوصيات تبقى علامة تمايز تثري الاختلاف وتمنح المجتمعات الدافع للإبداع وللبقاء، لكن قد يحدث الانحراف ويختل الميزان، وقد تطغى أمة على أمة لأسباب ما ليس هذا مجال ذكرها، لكن اندفاع القوة المادية دون أن تواكبها القيمة الأخلاقية الضابطة للقوة هي السبب الرئيس في انكشاف عمق التشوهات الحضارية والدافع الأنسب لظهور نزوة العقل المعدّل لوعي الشعوب، وهو ما شهدته الشعوب العربية بعد سبات طويل تحت نير الاستعمار، ومع ثورات الربيع العربي ثم جائحة كورونا قد نشهد انبثاقا للعقل المعطَّل.

على أن العقل الذي يواجه الواقع متجرّداً من قوّة الوحي التي تمّ انتزاعها من الإنسان لـــمّا تصوّر الآخر أنّه قد أجهز على الإله، سيجد نفسه أضعف من أيّ وقت وهو يعيد النظر في قضايا كبرى حاول أن يتجاهلها ويُرغِم الرّأي العام العالمي على تغييبها تحت ذرائع صنَعتها الصهيونية العالمية في مخابرها، ولم تكن تدرك أنّ البشرية ستصحو حتماً بعد أن تنفض غبار جائحة كورونا عن أسئلتها المنسية، ولعلّ أهمّ الأسئلة التي سيستعيدها المسلمون والعرب أساساً ستكون حول القضية المركزية للأمة وهي القضية الفلسطينية، وكذلك سؤال الحداثة الموهومة التي تظلّلها وعود الديمقراطية المسقطة بحمولتها الغربية المشوّهة والتي لم تعد تختلف عن إخضاع للاستنساخ القسري ومحاولات بائسة لتهجين حضاري استفاق على نوع من المسخ الذي لم يستكمل شروط انسلاخه النهائي عن تاريخه وانتمائه الحضاري، وهو ما يُبقي بصيصاً من الأمل لإمكانية استيعاب اللحظة الحضارية من أجل إحياء القضية الفلسطينية، وإعادة تشكيل أنماط الحكم بما يتوافق مع متطلبات قضايا الإنسان واستحضار مبدأ الشورى الذي يستفيد من المشترك الإنساني وما وفّره من إنتاج نظري وعملي في مجال القوانين واحترام حقوق الإنسان تحت مظلة أخلاقية تكون وعاء للفعل الحضاري بمرجعية توحيدية تشخص الواقع المرّ للبشرية وتخرجها من الظلمات إلى النور، فهل هذا متاح بعد ما بلغته الإنسانية من إحراجات السؤال عن الخيار الأمثل للخلاص؟

المطلب الرابع: بين الشورى والديمقراطية وخيار الضرورة لراهنية الفعل الحضاري.

الشورى هي أساس وركن ومنهج، وقد نبّه الإمام ابن عطية الأندلسي إلى أن: (الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه، وقد مدح الله المؤمنين بقوله تعالى: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ**﴾[الشورى: 38]، ... وقال –عليه الصلاة والسلام–: "**المستشار مؤتمن**"[28]، وصفة المستشار في الأحكام أن يكون عالماً ديّناً، وقل ما يكون ذلك إلا في عاقل، فقد قال الحسن بن أبي الحسن: "ما كمل دين امرئ لم يكمل عقله"، وصفة المستشار في أمور الدنيا أن يكون عاقلاً مجرباً وادّاً في المستشير. والشورى بركة، وقد جعل عمر بن الخطاب الخلافة –وهي أعظم النوازل– شورى..)[29].

ولكن السؤال هو كيفية تنظيمها وتطبيقها واعتمادها بوصفها إجراءات؟ وما آليات تطبيقها؟ وكيفيات تنزيلها؟

إن الذين اهتموا بشكل نظام الحكم في الإسلام، أعيوا أنفسهم في طلب ما لا طائل وراءه، فهذا الأمر لا نجده مقرراً ومحسوماً في نصوص الوحي وإنما هو متروك للاجتهاد والتجربة، وذلك من خلال الاجتهاد في البحث على آليات تنزيل الشورى في واقع الناس.

وقد ثبت تاريخياً أن اختيار الخلفاء الراشدين تم وفق عمليات اجتهادية مختلفة وليست واحدة، ولم تستند عملية اختيارهم إلى آلية واحدة ملزمة، ومن ثم لا يوجد ما يمنع شرعاً من إمكانية الاستفادة من آليات جديدة مثل صناديق الاقتراع وآليات التصويت بوصفها اجتهاداً بشرياً وحكمةً، والحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق الناس بها، بحيث تصبح العملية أكثر وضوحاً وشفافية، وهذا يجعلنا نستفيد مما بلغته التجربة الإنسانية في مجال العمل المؤسساتي.

ومن ثم فإن الذين اهتموا بالشكل ضيعوا – في المقابل – الأهم، وهو البحث في المبادئ والتوجهات العامة التي نص عليها القرآن الكريم، وصحيح السنة المطهرة، والتي اجتمع عليها حكم الخلفاء الراشدين، وهذه **المبادئ والقيم المحوية للنظام السياسي والمتمثلة في: العدل، والنزاهة، والاستقامة، والشورى، والحرية، والحق في المساءلة والمحاسبة، وتحقيق الأمن والرضا والاستقرار**، وهكذا ضيعوا فرصة الاستفادة مما بلغته التجربة الإنسانية في باب بناء المؤسسات السياسية، وطرائق إدارة الحكم والتداول السلمي على السلطة، وليس هناك في شريعة الإسلام ما يحظره، وقد نص ابن قيم الجوزية في هذا الباب على قاعدة ذهبية لخصها بقوله –رحمه الله–: (فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان، فثمّ شرع الله ودينه، والله سبحانه أعلم وأحكم، وأعدل أن يخص طرق العدل وأماراته وأعلامه بشيء، ثم ينفي ما هو أظهر منها وأقوى دلالة، وأبين أمارة فلا يجعله منها، ولا يحكم عند وجودها وقيامها بموجبها، بل قد بيّن سبحانه بما شرعه من الطرق، أن مقصوده إقامة العدل بين عباده، وقيام الناس بالقسط، فأي طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين، وليست مخالفة له)[30].

أما الديمقراطية فبوصفها أنموذج حكم فإنها مسبوقة بنظريات وتطورات متلاحقة فيما يخص حقوق الإنسان، وهي كذلك ملحوقة بقراءات أخرى تؤصّل لهذه المبادئ والقيم المحورية في أدقّ فروعها، وعليه فالعالم الغربي اليوم ليس في حاجة إلى مناقشة هذه النظريات في كلياتها؛ إذ هي وعبر قرون تجسّدت سياسياً واجتماعياً وثقافياً واقتصادياً، ففي بريطانيا مثلاً يرى بعض المفكرين أن المواطنة مثلا باعتبارها أحد أهمّ العوامل التي تحقق الديمقراطية، تنقسم "**إلى أقسام ثلاثة، تحققت في إنغلترا[31] خلال ثلاث[32]، قرون متتالية: الحقوق المدنية، وهي التي برزت في القرن الثامن عشر، الحقوق السياسية، التي ظهرت في القرن التاسع عشر، ثم الحقوق الاجتماعية (الحق في التعليم العمومي وفي العلاج والتأمين ضدّ البطالة والمعاش عند بلوغ سن التقاعد) التي وقع إقرارها في القرن العشرين**"[33].

ويظهر أي استقراء أنه كلما اتسعت دائرة الحقوق اتسع معها مجال المواطنين الأحرار، وعليه فالديمقراطية إنّما هي حالة من النموّ لأرقى نماذج الحكم تحقيقاً لوصفة أخلاقية أكثر إنصافاً ممّا نشهده في نماذج الحكم الأخرى، وإذا كانت الديمقراطية

في ذاتها ليست بديلاً عن الدين ولا عن منظومة المبادئ الأخلاقية التي تحظى بأوسع مدى من التوافق الإنساني، إلا أنها تمثل أوسع التوافقات حول قدرتها على توفير غطاء أكثر أمنا للعدالة الاجتماعية وحقوق المواطنة.

من خلال هذا المنظور وإذا كانت الدول المتقدّمة لا تزال توسّع من دائرة حقوق المواطنين، حتى إنها قد اقتحمت حقوق الآخر وضحّت في أكثر الأحيان بالقيم الأخلاقية العليا؛ من أجل تطوير بيتها الداخلي (يظهر ذلك في حركة الاستعمار المباشر وغير المباشر)، فإننا نجد بالمقابل الأنظمة العربية تقدّم وصفات تسطيحية للديمقراطية وكلّ متعلقاتها، بل في الحقيقة ومن خلف الستائر المعتمة توغل في قمع الحريات العامّة، وفي كثير من الأحيان تشوّهها حتى تفرض أشدّ ألوان الوصاية تقييداً لحركة المواطنة ومنعها من البحث عن خياراتها السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وبمعنى آخر منعها من تفعيل ضرورتها الحضارية تأسيساً لمستقبل تتحقق فيه مواطنة الشعوب والوعي بالذات بوصفها مطلباً رئيساً للتطور والنهوض.

ولكم كان مؤلماً أن ندرك أن المسلمين كانوا أوّل من حافظ على مبدأ الحرية في أحلك مراحل التجريب لأنماط حكم مختلفة، وفي بدايات تجربة الحكم، والأمّة وقتها تشهد اضطراباً لم تشهده من قبل، وقد كان ذلك في أتون الخلاف بين علي ﷺ والخوارج، حيث "**وبرغم الموقف الحادّ من المعارضة والإنكار الذي اتخذه الخوارج من الإمام علي طوال سنوات حكمه، فإنّه قال لهم في صراحة وجلاء: لكم علينا ثلاث: ألا نمنعكم من المساجد، ولا من رزقكم في الفيء، ولا نبدأكم بقتال ما لم تحدثوا فساداً**"[34]، هذا إلى جانب أنه لم يمنع أحداً من تركِهِ والانضمام إلى غيره، كما أمر ولّاته أن لا يتعرضوا لواحد منهم التحق بثغر من الثغور، كلّ هذا في مرحلة متقدّمة من تاريخ التأسيس السياسي والاجتماعي للحضارة الإنسانية، لكن الارتخاء الحضاري الذي أصاب الأمّة في مراحل لاحقة والذي كان من أهمّ أسبابه دكتاتورية الحكم وتطويعها للعلماء والتنكيل بالعقول الحرّة وازدرائها، بل ترذيلها من خلال تقديمها للعامّة في صورة المخالفة للدين.

ولو أن الأمّة تحررت من عقال الاستعباد والتضليل لكانت لها المقدرة على فرز الفكر الصالح المنتج من الفكر الماضوي المشدود إلى لحظة في التاريخ لا يملك القدرة على مغادرتها، إنّ الوحي حيّ ولا يقبل السجن في سياق تاريخي معيّن، إنه محرّك للمجتمعات مستنهض لقواها الفكرية والعملية، ولم ينزّل الله ﷻ الوحي ليكون أداة طيعة بأيدي علماء السلطة ومن والاهم من مرتزقة المال، بل ليحافظ على حياة العقول الحرّة ويفعّلها من أجل القيام بوظيفتها الاستخلافية على الوجه الذي يريده المستخلِف، حيث إنّ الكلام الذي لا يتحوّل إلى أفكار حيّة تنفع النّاس فلن يعدُوَ أن يكون حطباً محترقاً، وهو مصداق قوله تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾[النحل: 89]، وهو ما أصبح قناعة لدى أهل الفكر عامّة، إذ "**من الأهمية بمكان أن نشير هنا إلى أنّ البحوث الإبستيمولوجية الحالية تُظهر أنّ الأمر لا يتعلّق بتغيّر بسيط خالص في الكلمة، إنّه تغيّر في العقلية العلمية، وفي نمط التصوّر الداخلي للتاريخ**"[35].

إنّ إيماننا بأنّ الحرّية مبدأ أصيل في هذا الدين، وأنه لا وجود بغير الحرية، إنما نستند في ذلك إلى الوحي نفسه، حيث إن الله ﷻ ومن خلال القرآن صرّح بوضوح أنّه لا إكراه في الدّين، وإذا كان هذا المنع في أعلى حقوق الله على الخليقة،

فالأولى أن يمتنع الإكراه عن كل ما دون ذلك، لكن قد يخشى البعض بأن توسيع دائرة الحريّة قد يؤول إلى الفوضى وهو ما شهدناه في كثير من تجارب الشعوب التي لم تتحقق لديها ثمرة الانفتاح على الحريات مثلما كان الادّعاء مع بعض نماذج ثورات الرّبيع العربي، وهنا نقول إنّ تجريد الخيارات القِيَمية الكبرى من المؤامرات السياسية الدّاخلية والخارجية مثلما تتجرّد القوانين العلمية عن كلّ معطى خارجي، هو ما يتيح لنا إدراك تلازمية الحريّة والمسؤولية والأخلاق، وهو ما لم نقدر على إنتاجه في واقع إسلامي يخنق الشعوب ويمنعها من أن تَرِدَ منابع الفعل الحضاري، ويمنعنا حتى من الوعي بـ **"أنّ الحريّة الواعية هي أساس المسؤولية الخلقية، وهذا يعني أنّ كلّ فعل لا يصدر عن حريّة واعية لا تترتب عليه أيّة مسؤولية خلقية، والمسؤولية صفة تلازم صاحبها من قبل أن يبدأ الفعل إلى ما بعد انتهائه"**[36]، وعليه فإن أيّ عاقل منصف يدرك أنّ الديمقراطية اليوم بما تمثله من مظلة للحريات العامّة وحقوق الإنسان المختلفة هي خيار الشعوب الإسلامية للخروج من الأزمة الحضارية التي تعيشها، مع أنّنا لا نجزم بأن الديمقراطية هي خيار مثالي مطلق؛ إذ إنّ تعيينها هذا يفترض فرض خصوصيات الشعوب المتقدّمة بوصفها قيماً كونية وجب تمثّلها، وهذا في غياب الفعل الحضاري يبدو واقعاً مريراً نعيش كثيراً من تمثّلاته المشوّهة، لكن مع حضور الفعل الحضاري للأمّة فإن الحاجة إلى قيام الديمقراطية، أو الانتقال السلس إليها صار ضرورة إنسانية قبل أن تكون ضرورة إسلامية وهو ما أشرت إليه خلال الحديث عن تأثير جائحة كورونا وافتقار العالم إلى أبعاد تعالج ذلك الفراغ الهائل الذي خلفته الحضارة المادية في عقائد الناس وقيمهم الأخلاقية.

ولقد أسال العلماء المصلحون ورواد النهضة في العالم الإسلامي كثيراً من الحبر وهم يتحدثون عن الحرية، ولكن بقي **سؤال الحرية** سؤالاً للنخبة ولم يتنزل ليصبح مطلباً ملحّاً للجماهير في مرحلة النهضة، فقد كانت الأمة تعيش ضموراً في وعيها بمضامين الحرية.

ورغم كتاباتهم عن طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد كما فعل الكواكبي، إلا أن العقل العربي وبسبب سرعة انتهاء تجربة التداول على السلطة بعد تجربة الخلافة الراشدة، لم يتطور الفقه السياسي بقدر تطور مجالات الفقه الأخرى وكثرة الكتابة فيها، فربما تعدُّ على أصابع اليدين ما وصلتنا من مصنفات في مجال الفقه السياسي والأحكام السلطانية والسياسة الشرعية، ومن ثمّ فقد بقي ضبط الأسباب العميقة الكامنة وراء الاستبداد ضبابية رمادية تحتاج إلى تحديد أعمق وتفصيل أدق.

وحتى مع الأنظمة الديمقراطية السائدة اليوم في عالمنا العربي، وبرغم وجود الدساتير ومؤسسات الرقابة الراعية للحرية، إلا أن دولة القانون والمؤسسات لا زالت حلماً، وتلك الدساتير والمؤسسات ومنظمات المجتمع المدني، صارت مبنى بلا معنى وشكلاً بلا مضمون، بل إن بعضها لا يعدو مجرّد واجهات ولافتات، ترتبط بخيط ناظم لها، يختفي بين طياتها الحكم المطلق، واستبداد طبقة تحكم، وجماهير مسلوبة الإرادة.

ولقد شهدنا وما زلنا نشهد منظومات استبدادية لها القدرة على التغيير المرن في أشكالها ولافتاتها وواجهاتها، إلا أن جوهرها واحدٌ، ومن ثم فإن سؤال الحرية سيبقى البحث فيه مفتوحاً في عالمنا الإسلامي حتى نصل إلى الوعي المتقدم

بضرورة زوال الاستبداد والقطع معه، وندرك بدقة الأسباب العميقة المؤسِّسة له وللقابلية به، ونرسم السبُلَ ونجترح الخطط التي تروم تفكيك واجهاته التي تحاول إخفاء آثاره.

الخاتمة.

لا شك أن المقوِّم الأساس الذي يستند إليه الفعل الحضاري يمتد بوجوده إلى أصل خلافة الإنسان على هذه الأرض، ونسيان هذا الأمر أو الغفلة عنه هو السبب الأهم في انحراف البشرية عن مسار الوظيفة المناطة بعهدتها، ولئن تمكن الإنسان في فترات كثيرة من الحفر في جذر التاريخ والبصم في الحضارة بآثار ما زال يقتفي معالمها ويستقرئ أحداثها، فإن هذا المسار ذاته يشي بتحولات كبيرة وتشوهات أكبر، مع أننا لا نفتقد فيه ميراث الخير والعطاء.

ولقد اتسمت بداية الاستخلاف بالضرورة والبساطة انسجاماً مع لحظة الخلق والتكليف المباشر، ومعاينة آدم أبي البشر عالم الغيب وهبوطه محملا بأعباء الخلافة، إلا أن ذريته من بعده أصبحوا شيعاً، فابتعدوا عن الإيمان الأوّل وواجهوا الطبيعة بكل سطوتها، فخضعوا لها خضوع العابد للمعبود، فكانت مرحلة الاعتقاد المغيِّبة للعقل والتي تواتر فيها أنبياء الله دعاة ومصلحين، ودفعوا الضريبة آلاما وتضحيات مع المستضعفين الذين يحدوهم الأمل في صلاح الواقع، فشهدت الحضارة بذلك بعض التنظيم من خلال المراكمة المادية مثل الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية، وبعض الانبثاقات الثقافية العقلانية مثل الفكر اليوناني، إلى جانب بعض الموروث الأخلاقي الديني، وهو ما سمح للعقل أن يصحو من جديد ليتولى عهدة التكليف ويقوم بمهمة الاستخلاف؛ وذلك لما أذن الله تعالى للإسلام بالظهور على يد خاتم الأنبياء محمد ﷺ، حيث إن معجزة الإسلام هي القرآن الكريم المُوجَّه إلى العقل مباشرة، فأعاد حضارة الإنسان إلى مسارها الصحيح، لكن خللا كبيرا تسبب في تعثّر هذه المهمة العظيمة، وكانت القضية الفلسطينية أهم تجلياتها، ولعل تخلف مؤسسة الحكم في كثير من بلدان العالم الإسلامي وعجزها عن تمثل حقوق الشعوب ومصادرتها لحرية الأفراد ولإرادة رعاياها هي السبب في اختلال الميزان بين الذات السليبة والآخر الغالب، فهل تعيد الصدمات التي تعرضت لها الأمة والبشرية القدرة على الفعل الحضاري والنهوض من جديد؟

الهوامش.

(1) انظر: ابن منظور، جمال الدين، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، لبنان، (ط4)، 2005م، 132/5.

(2) ابن عاشور، محمد الطّاهر، **التّحرير والتنوير**، دار سحنون للنّشر والتوزيع، تونس، (د.ط)، (د.ت)، 398/1-399.

(3) النجار، عبد المجيد، **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن/ فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، (ط2)، 1413هـ/ 1993م، ص55.

(4) الصدر، محمد الباقر، **خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء**، تحقيق: أحمد ماجد، دار المعارف الحكمية، بيروت، لبنان، 2014، ص55.

(5) النجار، عبد المجيد، **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**، المصدر نفسه، ص55.

(6) المصلح، محمد أبو بكر، نحو توظيف معايير الفاعلية في تطوّر مقرّر الثقافة الإسلامية في جامعة قطر، ضمن **مجلّة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية**، المجلّد 34، العدد2، 1438هـ/2016م، الدوحة، قطر، ص: 283.

(7) ابن كثير، إسماعيل، **تفسير القرآن العظيم**، دار الجيل، بيروت، لبنان، (ط2)، 1410هـ/ 1990م، 68/1.

(8) المصدر نفسه: 68/1.

(9) المصدر نفسه، 67/1

(10) الشاطبي، أبو إسحاق (ت790 هـ): **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت لبنان، (ط4)، 1420هـ/ 1999م، 82/1

(11) ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، 337/25.

(12) المصلح، محمد أبو بكر، مقاصد الخلق وجوهر التربية الأصيل: دراسة في ضوء القرآن الكريم، ضمن **مجلّة كلية الشريعة والدراسات الإسلاميّة** (المجلّد 38- العدد2)، 1442هـ، جامعة قطر، الدوحة، قطر، ص186

(13) إيمار، أندريه/ أوبوايه، جانين، **تاريخ الحضارات العام الشرق واليونان القديمة**، إشراف موريس كروزيه، ترجمة: فريد م داغر/ فؤاد ج أبو ريحان، منشورات عويدات، بيروت، لبنان/ باريس، فرنسا، (ط4)، 1998م، 23/1.

(14) ديورانت، وِل وايريل، **قصة الحضارة**، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د.ط)، 2010م، 9/1.

(15) ديورانت، **قصة الحضارة**، م.س، 5/1.

(16) إيمار، أندريه/ أوبوايه، جانين، **تاريخ الحضارات العام**، مصدر سابق، 18/1.

(17) المرجع نفسه، 18/1.

(18) انظر: ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، 530/1.

(19) المصلح، محمد أبو بكر، **مقاصد الخلق وجوهر التربية الأصيل: دراسة في ضوء القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص190.

(20) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت 774هـ): **تفسير القرآن العظيم**، دار الجيل، بيروت، (ط2)، 1410هـ/1990م، 245/4.

(21) أول كلمة في سورة العلق وبها افتتاح الوحي بالقرآن.

(22) داود، عبد الأحد، **محمد كما ورد في كتاب اليهود والنصارى**، ترجمة: محمد فاروق الزين، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية، (ط1)، 1418هـ/1997م، ص207.

(23) المغلس، هاني عبادي محمد سيف، **الطاعة السياسية في الفكر الإسلامي، النص والاجتهاد والممارسة**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن/ فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، (ط1)، 1435هـ/ 2014م، ص80.

(24) الجابري، محمد عابد، **تكوين العقل العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، (ط10)، 2009، ص338.

(25) المصدر نفسه، ص337.

(26) انظر لمزيد التوسع: الحياري، إيمان: **أشهر إنجازات علماء المسلمين في الطب**، موقع محطات، 16 يونيو 2018م، بتصرف، رابط الموضوع https://www.mah6at.net :/

(27) حجازي، عبد الله: **أشهر إنجازات المسلمين في علم الفلك**، موقع الألوكة– مكتبة الألوكة، تاريخ الإضافة: 1433/12/18 هجري، 2012/11/3م، رابط الموضوع: https://www.alukah.net/library/0/45930/#ixzz6dPBwXpyV

(28) الترمذي، محمد بن عيسى (ت 279 ه)، **الجامع الكبير**، تحقيق: بشار عواد، معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (ط1)، 1996م، حديث رقم 2822، 512/4. وخلاصة حكم الحديث: حسن صحيح غريب.

(29) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب (ت 541 ه)، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1413ه، 1993م، (ط1)، 2/ 405 –406.

(30) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (ت 751ه): **الطرق الحُكمية**، تحقيق: نايف بن أحمد الحمد، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، (ط1)، 1428ه، 31/1.

(31) كتبت هكذا.

(32) من المفترض أن تكون (ثلاثة قرون).

(33) كيملشكا، وِيل، **مدخل إلى الفلسفة السياسية المعاصرة**، ترجمة: منير الكشو، دار سيناترا، تونس، (ط1)، 2010م، ص359.

(34) الصلابي، علي محمد، **الحريات من القرآن الكريم**، دار الروضة للطباعة والنشر والتوزيع، إستانبول، تركيا، (ط1)، 2017م، 97.

(35) منسية، مقداد عرفة وآخرون، **في الفلسفة العربية الفلسفة السياسية وفلسفة التاريخ**، دار التنوير للطباعة والنشر، تونس، (ط1)، 2016م، ص 63.

(36) زقزوق، محمود حمدي، **دراسات في الفلسفة والأخلاق**، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر/ دار الكتاب اللبناني، بيروت، (ط1)، 1435ه/ 2014م، ص317.

قائمة المصادر والمراجع.

الكتب:

- ابن عاشور، محمد الطّاهر، **التّحرير والتنوير**، دار سحنون للنّشر والتوزيع، تونس، (د.ط)، (د.ت).
- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب (ت 541ه): **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ط1)، 1413ه، 1993م.
- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (ت 751ه): **الطرق الحُكمية**، تحقيق: نايف بن أحمد الحمد، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، (ط1)، 1428ه.
- ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، دار الجيل، بيروت، لبنان، (ط2)، 1410هـ/ 1990م.
- ابن منظور، جمال الدين، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، لبنان، (ط4)، 2005م.

- إيمار، أندريه/ أوبوايه، جانين، **تاريخ الحضارات العام الشرق واليونان القديمة**، إشراف موريس كروزيه، ترجمة: فريد م داغر/ فؤاد ج أبو ريحان، منشورات عويدات، بيروت، لبنان/ باريس، فرنسا، (ط4)، 1998م.
- الباقر، محمد: **خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء**، تحقيق: أحمد ماجد، دار المعارف الحكمية، بيروت، لبنان، 2014، ص55.
- الترمذي، محمد بن عيسى (ت 279هـ)، **الجامع الكبير**، تحقيق: بشار عواد، معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (ط1)، 1996م.
- الجابري، محمد عابد، **تكوين العقل العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، (ط10)، 2009.
- داود، عبد الأحد: **محمد كما ورد في كتاب اليهود والنصارى**، ترجمة: محمد فاروق الزين، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة. العربية السعودية، (ط1)، 1418هـ/1997م.
- ديورانت، وِل وايريل، **قصة الحضارة**، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د.ط)، 2010م.
- زقزوق، محمود حمدي، **دراسات في الفلسفة والأخلاق**، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر/ دار الكتاب اللبناني، بيروت، (ط1)، 1435هـ/ 2014م.
- الشاطبي، أبو إسحاق (ت790 هـ): **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت لبنان، (ط4)، 1420هـ/ 1999م.
- الصلابي، علي محمد، **الحريات من القرآن الكريم**، دار الروضة للطباعة والنشر والتوزيع، إستانبول، تركيا، (ط1)، 2017م.
- كيملشكا، وِيل، **مدخل إلى الفلسفة السياسية المعاصرة**، ترجمة: منير الكشو، دار سيناترا، تونس، (ط1)، 2010م.
- المغلس، هاني عبادي محمد سيف، **الطاعة السياسية في الفكر الإسلامي، النص والاجتهاد والممارسة**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن/ فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، (ط1)، 1435هـ/ 2014م.
- منسية، مقداد عرفة وآخرون، **في الفلسفة العربية الفلسفة السياسية وفلسفة التاريخ**، دار التنوير للطباعة والنشر، تونس، (ط1)، 2016م.
- النجار، عبد المجيد، **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن/ فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، (ط2)، 1413هـ/ 1993م.

المجلات والدوريات:

- المصلح، محمد أبو بكر، **مقاصد الخلق وجوهر التربية الأصيل: دراسة في ضوء القرآن الكريم**، ضمن مجلّة كلية الشريعة والدراسات الإسلاميّة (المجلّد 38– العدد2)، 1442هـ، جامعة قطر، الدوحة، قطر.
- المصلح، محمد أبو بكر، **نحو توظيف معايير الفاعلية في تطوّر مقرّر الثقافة الإسلامية في جامعة قطر**، ضمن مجلّة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، المجلّد 34، العدد2، 1438هـ/2016م، الدوحة، قطر.

مواقع الانترنيت:

- الحياري، إيمان: **أشهر إنجازات علماء المسلمين في الطب**، موقع محطات، 16 يونيو 2018م، بتصرف، رابط الموضوع: **https://www.mah6at.net**
- حجازي، عبد الله: **أشهر إنجازات المسلمين في علم الفلك**، موقع الألوكة– مكتبة الألوكة، تاريخ الإضافة: 1433/12/18 هجري، 2012/11/3م، رابط الموضوع: **https://www.alukah.net/library/0/45930/#ixzz6dPBwXpyV**

References.

Al-Qur'ān al-Karīm

- Ibn 'Āshūr, Muḥammad al-Ṭāhir. Tafsīr al-Taḥrīr wa al-Tanwīr. Dār Saḥnūn lil Nashr wa al-Tawzī', Tunis, d/ṭ, d/t.
- Ibn 'Aṭīyyah, Abū Muḥammad 'Abd al-Ḥaq bin Ghālib (d. 541 AH): al-Muḥarrir al-Wajīz fī Tafsīr al-Kitab al-'Azīz, Taḥqīq 'Abd al-Salam 'Abd al-Shafī, Dār al-Kutub al-'Ilmīyyah, Beirut, Lebenon, 1st. ed., 1413 AH, 1993 AD.
- Ibn Qayyim al-Jawzīyah Abū Bakr (d. 751 AD): al-Ṭuruq al-Ḥukmīyyah, Taḥqīq, Nāyif bin Aḥmad al-Ḥamd, Dār 'Ālam al-Fawā'id, Makkah al-Mukarramah, Kingdon of Saudi Arabia, 1st. ed., 1428 AH.
- Ibn Kathīr, Ismā'īl, Tafsīr Al-Qur'ān al-Karīm, Dār al-Jīl, Beirut, Lebenon, 2nd. ed., 1410 AH/ 1990 AD.
- Ibn Manẓūr, Jamāl al-Dīn, Lisān al-'Arab, Dār Ṣādir, Beirut, Lebenon, 4th. ed., 2005 AD.
- 'Īmār, Andrīh/ 'Ūbwāyah, Jānīn, Tārīkh al-Ḥaḍārāt al-'ām al-Sharq wa al-Yūnān al-Qadīmah, 'Ishrāf Mūrīs krūzīh, tarjamat Farīd M Dāghir/ Fu'ād J Abū Rayḥān, manshūrāt 'wīdāt, Beirut, Lebenon/ Paris, France, 4th ed. 1998 AD.
- Al-Bāqir, Muḥammad: Khilāfat al-'insān wa Shahādat al-'anbiyā', Taḥqīq, Aḥmad Mājid, Dār al-Ma'rifah, Beirut, Lebenon, 4th ed. P: 55.
- Al-Tarmadhī, Muḥammad bin 'īsā (d. 279 AH), al-Jāmi' al-Kabīr, Taḥqīq, Bashshār 'awwād, Ma'rūf, Dar al-Gharb al-'islāmī, Beirut, 1st ed. 1996 AD.
- Al-Jābrī, Muḥammad 'ābid, Takween al-'aql al-'arabī, Markaz Dirāsāt al-wiḥda al-'arabīyyah, 10th ed. 2009 AD.
- Dāwūd, 'Abd al-'Aḥad: Muḥammad kamā warada fī kitāb al-yahūd wa al-naṣārā, tarjamat Muḥammad fārūq al-Zayn, maktabat al-'bīkān, Riyadh, Kingdon of Saudi Arabia, 1st ed., 1418 AH, 1997 AD.
- Dyūrānt, Will Wīrīl, qiṣṣat al-Ḥaḍara, Dār al-Jīl, Beirut, Lebenon, n. ed., 2010 AD.

- Zaqzūq, Maḥmūd Ḥamdī, Dirāsāt fī al-Falsafah wa al-'Akhlāq, Dār al-Kitāb al-Miṣrī, Cairo, Egypt/ Dār al-Kitāb al-lubnānī, Beirut, 1st ed., 1435 AH, 2014 AD.
- Al-Shāṭibī, Abū Isḥāq (d. 790 AH): al-Muwāfaqāt, Taḥqīq, Ibrāhīm Ramaḍān, Dār al-Ma'rifah, Beirut, Lebenon, 4th. ed., 1420 AH / 1999 AD.
- al-Ṣallābī, 'Alī Muḥammad, al-Ḥuryyāt min Al-Qur'ān al-Karīm, Dār al-Rawḍah, Istanbul, Turkey, 1st ed., 2017 AD.
- Kīmilshka, Will, Madkhal 'ila al-Falsafah al-siyāsīyyah al-Mu'āṣirah, tarjamat, Munīr al-Kashū, Dār Sīnātrā, Tunis, 1st ed., 2010 AD.
- Al-Maghlis, Hānī 'Abbādī Muḥammad Saif, al-Tā'ah al-Siyāsīyyah fī al-Fikr al-'Islāmī, al-naṣ wa al-'Ijtihād wa al-Mumārasah, al-Ma'had al-'Aālamī lilfikr al-'Islāmī, Hurundan/ Virginia, U.S., 1st ed., 1435 AH, 2014 AD.
- Mansīyyah, Miqdād 'Arafah wa 'Akharūn, fī al-Falsafah al-'Arabīyyah al-Falsafah al-siyāsīyyah wa Falsafat al-Tārīkh, Dār al-Tanwīr liltibā'a wa al-Nashir, Tunis, 1st ed., 2016 AD.
- Al-Najjār, 'Abd al-Majīd, Khilāfat al-'insān bayn al-waḥī wa al-'Aqil, al-Ma'had al-'Ālamī lilfikr al-'Islāmī, Hurundan/ Virginia, U.S., 1st ed., 1413 AH, 1993 AD.

Al-Majallāt wa al-Dawrīyāt

- Al-Muṣliḥ, Muḥammad Abū Bakr, Maqāṣid al-Khalq wa Jawhar al-Tarbīyyah al-Aṣīl: Dirāsah fī Ḍaw' al-Qur'ān al-Karīm, Ḍimn, The Journal of College of Sharia and Islamic Studies (Vol. 38-2), 1442 AH, Qatar University, Doha, Qatar.
- Al-Muṣliḥ, Muḥammad Abū Bakr, Naḥw Tauẓīf Ma'āyīr al-Fā'līyyah fī Taṭawwur Muqarrar al-Thaqāfah al-Islāmīyyah fi Jāmi'at Qaṭar,(in Arabic),Ḍimn The Journal of College of Sharia and Islamic Studies, Vol. 34-2, 1438 AH / 2016 AD, Doha, Qatar.

Maqālāt 'Alā Mawāqi' al-Intarnīt

- Al-Ḥiyārī, 'īmān: Ashhar 'injāzāt 'Ulamā' al-Muslimīn fī al-ṭib, Mawqi' maḥaṭṭāt, 16 June, dated: 2018 AD, bitaṣarruf, al-Rābiṭ: https://www.mah6at.net/
- Ḥijāzī, 'Abd Allāh: Ashhar 'injāzāt al-Muslimīn fī 'Ilm al-Falak, Mawqi' al-'Alūkah- Maktabat al-'Alūkah, Tārīkh al-'Iḍafah: 18/12/1433 AH, 3/11/2012 AD, al-Rābiṭ: https://www.alukah.net/library/0/45930/#ixzz6dPBwXpyV

.